مقام الاحسان فى الأسلام

للاستاذ محمد قطب

قال : فاخبرنى عن الاحسان .

قال . ان تعبد الله كأنك تراه . فان لم تكن تراه فانه يراك .

كان السؤال قبل ذلك عن الاسلام ثم عن الايمان . الاسلام درجة والايمان بعد ذلك درجة . وهذه هى درجة الاحسان . لكى يكون اسلامك حسنا . وايمانك كذلك .

تعبد الله كأنك تراه . .

تعبير عجيب يحمل فى بساطته حقيقة هائلة .

وأروع مايروعنى فيه (وقد يكون هذا تأثرا شخصيا) أنه يفاجئك وأنت تقلب وجهك فى الآفاق ، باحثا عن الاجابة . يفاجئك بالقبلة التى ينبغى أن تتجه إليها فاذا أنت هناك ـ على حين غرة ـ ترى النور . .

النور الذى يبهر العين ينهر القلب وينهر الروح ،

ترى الله . . .

« الله نور السماوات والأرض . . . نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » :

* * *

القاعدة الكبرى التى يقيم عليها الاسلام بناءه كله . هى أن تعبد الله كأنك تراه .

يقيم عليها نظمه جميعا . وتشريعاته جميعا وتوجيهاته جميعا . .

نظام السياسة . نظام الاقتصاد . نظام المجتمع . موقف الفرد من الدولة وموقف الدولة من الفرد . نظام الأسرة . معـــاملات الأفراد : معاملات الدول فى السلم وفى الحرب . . . كل شىء فى هذه الحياة !

ولقد يخطر للإنسان (أول ما يخطر) أن هذه عبادة : أليس فيها أن « تعبد الله » ! ؟

بل قد يخطر للانسان أنها العبادة القصوى ، التى ينقطع فيها وحين تتوجه إليه بنفسك جميعا : ظاهرها وباطنها . وسرها ونجواها . وحين تتوجه إليه وفى نفسك شعور التقوى الخاشعة والرهبة العميقة : فلا شك أنك ستنظف نفسك وتحرص على نظافتها .

إن الله لا تخفى عليه خافية . فكيف تستتر منه وأنت مقبل عليه ؟ كيف يمكن أن نعمل عملا واحدا لا يراه ؟

« ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » يعلم السر وأخفى » « يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافيـة » :

يا الله ! حتى خائنة الأعين ! الخائنة التى يظن الانسان أنه وحده الذى يحسها ويعرفها : وألا أحد فى الوجود كله يراها أو يفهمها ؟

حتى الوسوسة التى لا يطلع عليها أحد ، وصاحبها نفسه قد ينساق معها دون أن يتيقظ لها ؟

حتى السر : بل ما هو أخفى من السر : الخطوات الخائبة فى مسارات النفس . لا تصل الى ظاهر الفكر ، ولا يتحرك بها اللسان للتعبير !

يا الله ! إنه لا ستر إذن ولا استخفاء :

كل نفسك مكشوفة وأنت مقبل عليه . أفلا تنظف نفسك إذن قبل الاتجاه : ألا تزكيها ؟

ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها . »

فأما إن كنت معرضا عنه غير متوجه إليه . إن كنت لا تنظف له نفسك ولا تزكيها . فلن يغير ذلك شيئا من الأمر !

إنه يراك ! يراك بكل ما تصنع بنفسك من « تدسية » ومن سوء . يراك بخبائثك وأوضارك : يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور :

يراك . فما الفائدة فى التستر والاختفاء ؟ بل ما الفائدة من الإعراض والانصراف ؟ أالملك غير ملك الله تذهب ؟ « وبيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » ؟ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون . أم حسبوا أنهم معجزون فى الأرض ؟ أم حسبوا أن يفلتوا من العقاب ؟

كلا ! ما شىء من ذلك بمستطاع . فخير لك أن تراه وهو يراك !

* * *

وإنه لا يكلفك من أمرك رهقا !

« هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج : لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، فاتقوا الله ما استطعتم . .

إن رحمة الله واسعة : وإنه ليعلم ضعف الإنسان وماركب فى طبيعته من حب الشهوات : زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . . » ويعلم أن الجهد شاق والسفر طويل .

لذلك يقول ، فاتقوا الله ما استطعتم . .

ويقول : ادعونى أستجب لكم . أدعونى لكل شىء : وادعونى (فيما تدعونى إليه) لأعينكم على تنظيف أنفسكم من وعثاء الطريق !

هل جربت أن تستعينه فى هذا الأمر ؟

صدق الله وصدق وعده الحق .

ما يتوجه له إنسان يستعينه على نظافة النفس وطهـــارة القلب : الا استجاب له وأعانه على ما يريد !

وما هو بسحر ساحر ! ولكن هكذا يحدث حين يتجه القلب إلى الله ويخلص فى دعواه . إنه يجد الأمر عليه هينا ، ويجد نفسه أكبر من المغريات وأقوى من المعوقات : ويحس (إحساسا ملموسا مجسما) أن الله هو الذى يعينه ويسر له السبيل !

ومع ذلك كله فقد تضعف فى الطريق وتخور قواك . فهل يلفظك من رحمته ويحل غضبه عليك ؟

كلا ! ما دمت لم تنكص على عقبيك ولم تنكب الطريق .

انه يغفر . يغفر الذنوب جميعا ، وسعت رحمته كل شىء .

« والله يحب المحسنين : والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم (ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟) ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها : ونعم أجر العاملين » :

« إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا : فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات : وكان الله غفورا رحيما » :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله : إن الله يغفر الذنوب جميعا » :

كلا ! لن يلفظك من رحمته ما دمت باقيا على الطريق : وما عليك الا أن تقوم من عثرتك وتنفض ثوبك وتتجه إليه من جديد . .

* * *

وحين تتوجه اليه : حين ترقبه كأنك تراه : حين تنظف نفسك

وتحرص على ألا تتلوث فى الطريق : حين تحاسب نفسك على كل صغيرة وكبيرة خشية أن تكون قد حدث : حين تراجع كل عمل عملته وكل كلمة قلتها وكل خاطرة وسوست بهـا نفسك وكل حركة تحركتهـا جارحة من جوارحك :

حينئذ يستقيم الأمر كله فى هذه الحياة ،

أمر الحاكم والمحكوم : والفرد والمجتمع ، والمرأة والرجل : والوالد والولد : والأمة والأمم على أوسع نطاق :

وحين كان المسلمون الأوائل يعبدون الله كأنهم يرونه كانت تلك الأمة العجيبة الفريدة فى التاريخ : « كنتم خير أمة اخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »

اثر الاستغفار فى الحياة

يقول الامام ابو الحسن الشاذلى :

« . . . إن من احصن الحصون من وقوع البلاء على المعاصى الاستغفار . قال الله تعالى « وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » .